خطبة صلاة الجمعة 27/ 11/ 2015 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(التراحم)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 90].

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: (هَذِهِ أَجْمَعُ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ لِخَيْرٍ يُمْتَثَلُ، وَلِشَرٍّ يُجْتَنَبُ).

روى الترمذي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«مَا مِنْ شَيءٍ يُوضَعُ فِي المِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ، وَإِنَّ صَاحِبَ حُسْنِ الْخُلُقِ لَيَبلُغُ بِهِ دَرَجَةَ صَاحِب الصَّوم وَالصَّلاةِ»** [الترمذي].

أيها الإخوة:

هذه عودة إلى سلسلة الخطب التي كنا فيها قبل حديثنا عن زاد المسافر، وهي سلسلة عنوانها: **(فضيلة... أخلاق تعاملية)** وقد مضت منها ثمان وعشرون خطبة، ونحن اليوم في الخطبة التاسعة والعشرين.

عنوان خطبة اليوم: **(التراحم)**

أصل علاقة المسلم مع من حوله الرحمة والرفق والشفقة، ومن نوادر ما قرأت أن المسلم مطلوب إليه نفقة زوجه وأولاده، وهذا مما هو معلوم ولكن يطالبه الفقه الإسلامي بالنفقة على أصيص نباتٍ حجزه في بيته أن ينفق عليه ويعتني به سقاية وتعهداً؛ فضلاً عما تعلمون من وجوب نفقة المسلم على الحيوان.

كتب الدكتور الزحيلي رحمه الله في موسوعته الفقهية: (أما نفقة الحيوان: فيجب على المالك إطعام بهائمه ولو مرضت، وسقيُها وريُّها، لقوله صلّى الله عليه وسلم: **«عُذّبت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت جوعاً، لا هي أطعمتها، ولا هي أرسلتها تأكل خشاش الأرض»** [رواه البخاري ومسلم].

ويحرم عليه أن يحمّلها ما لا تطيق؛ لأن فيه تعذيباً للحيوان الذي له حرمة في نفسه، وإضراراً به.

ويحرم أن يحلب من لبنها ما يضر بولدها؛ لأنه غذاء للولد، فلا يجوز منعه، ولأن كفايته واجبة على مالكه. ويسن أن يقلم أظفاره لئلا يؤذيها عند الحلب.

كما يجب إبقاء شيء من العسل في الخلية بقدر حاجة النحل إذا لم يكفه غيره.

وإن امتنع المالك من الإنفاق على بهيمة، أجبر عليه عند الجمهور قضاء وديانة).

فالأصل في علاقة المسلم مع من حوله من المخلوقات الرحمة والرفق والشفقة؛ فإذا كان هذا المخلوق إنساناً زادت رحمة المسلم به وإشفاقه عليه.

مَرَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِبَابِ قَوْمٍ وَعَلَيْهِ سَائِلٌ يَسْأَلُ: شَيْخٌ كَبِيرٌ ضَرِيرُ الْبَصَرِ، فَضَرَبَ عَضُدَهُ مِنْ خَلْفِهِ، وَقَالَ: مِنْ أَيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنْتَ؟ فَقَالَ: يَهُودِيٌّ. قَالَ: فَمَا أَلْجَأَكَ إِلَى مَا أَرَى؟ قَالَ: أَسْأَلُ الْجِزْيَةَ وَالْحَاجَةَ وَالسِّنَّ. قَالَ: فَأَخَذَ عُمَرُ بِيَدِهِ، وَذَهَبَ بِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ فَرَضَخَ لَهُ بِشَيْءٍ مِنَ الْمَنْزِلِ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى خَازِنِ بَيْتِ الْمَالِ فَقَالَ: انْظُرْ هَذَا وَضُرَبَاءَهُ؛ فَوَ اللَّهِ مَا أَنْصَفْنَاهُ أَن أكلنا شيبته ثُمَّ نَخْذُلُهُ عِنْدَ الْهَرَمِ.

وكتب سيدنا خالد بن الوليد في خلافة سيدنا أبي بكر رضي الله عنهما عهداً لأهل الحيرة في العراق، وكانوا على نصرانيتهم: (...وَجَعَلْتُ لَهُمْ أَيُّمَا شَيْخٍ ضَعُفَ عَنِ الْعَمَلِ أَوْ أَصَابَتْهُ آفَةٌ مِنَ الآفَاتِ أَوْ كَانَ غَنِياً فَافْتَقَرَ وَصَارَ أَهْلُ دِينِهِ يَتَصَدَّقُونَ عَلَيْهِ طَرَحْتُ جِزْيَتَهُ وَعِيلَ مِنْ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ وعيالُه)

إنها رحمة المسلم مع الناس كافة.

ولعلكم تذكرون أيها الإخوة: أن قريشاً أصابها قحطٌ في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، وهم على كفرهم وعدائهم للنبي صلى الله عليه وسلم، غير أني قرأت في شرح السِّيَر الكبير: (بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَمْسَ مِائَةِ دِينَارٍ إِلَى مَكَّةَ حِينَ قَحَطُوا، وَأَمَرَ بِدَفْعِ ذَلِكَ إِلَى أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ وَصَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ لِيُفَرِّقَا عَلَى فُقَرَاءِ أَهْلِ مَكَّةَ. فَقَبِلَ ذَلِكَ أَبُو سُفْيَانَ، وَأَبَى صَفْوَانُ وَقَالَ: مَا يُرِيدُ مُحَمَّدٌ بِهَذَا إِلَّا أَنْ يَخْدَعَ شُبَّانَنَا) قال ذلك وما علم أن خلق المسلم الرحمة.

فالأصل في علاقة المسلم مع من حوله من المخلوقات الرحمة والرفق والشفقة؛ فإذا كان هذا المخلوق إنساناً زادت رحمة المسلم به وإشفاقه عليه، فإذا كان هذا الإنسان أخاه المسلم بلغت الرحمة منتهاها وصارت تراحماً بينهم.

ذكر ابن كثير في البداية والنهاية: قَالَ طَلْحَةُ بن عبد اللَّهِ: خَرَجَ عُمَرُ لَيْلَةً فِي سَوَادِ اللَّيْلِ فَدَخَلَ بَيْتًا فَلَمَّا أَصْبَحْتُ ذَهَبْتُ إِلَى ذَلِكَ البيت فإذا عجوز عمياء مقعدة فقلت لها: ما بال هذا الرجل يأتيكِ؟ فَقَالَتْ: إِنَّهُ يَتَعَاهَدُنِي مُدَّةَ كَذَا وَكَذَا يَأْتِينِي بِمَا يُصْلِحُنِي وَيُخْرِجُ عَنِّي الْأَذَى.

إنه منتهى الرحمة من المسلم لأخيه المسلم.

وَقَالَ أَسْلَمُ مَوْلَى عُمَرَ: قَدِمَ الْمَدِينَةَ رُفْقَةٌ مِنْ تُجَّارٍ، فَنَزَلُوا الْمُصَلَّى فَقَالَ عُمَرُ لِعَبْدِ الرحمن بن عوف: هل لك أن تحرسهم اللَّيْلَةَ؟ قَالَ: نَعَمْ! فَبَاتَا يَحْرُسَانِهِمْ وَيُصَلِّيَانِ، فَسَمِعَ عُمَرُ بُكَاءَ صَبِيٍّ فَتَوَجَّهَ نَحْوَهُ فَقَالَ لِأُمِّهِ: اتَّقِ اللَّهَ تعَالَى وَأَحْسِنِي إِلَى صَبِيِّكِ.

ثُمَّ عَادَ إِلَى مَكَانِهِ، فَسَمِعَ بُكَاءَهُ فَعَادَ إِلَى أُمِّهِ فَقَالَ لَهَا مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ عَادَ إلى مَكَانَهُ، فَلَمَّا كَانَ آخِرُ اللَّيْلِ سَمِعَ بُكَاءَ الصَّبِيِّ فَأَتَى إِلَى أُمِّهِ فَقَالَ لَهَا: وَيْحَكِ، إنك أم سوء، ما لي أَرَى ابْنَكِ لَا يَقَرُّ مُنْذُ اللَّيْلَةِ مِنَ الْبُكَاءِ؟ ! فَقَالَتْ: يَا عَبْدَ اللَّهِ إِنِّي أَشْغَلُهُ عَنِ الطَّعَامِ فَيَأْبَى ذَلِكَ، قَالَ: وَلِمَ؟ قَالَتْ: لِأَنَّ عُمَرَ لَا يَفْرِضُ إِلَّا لِلْمَفْطُومِ.

قَالَ: وكم عمر ابنك هذا؟ قَالَتْ: كَذَا وَكَذَا شَهْرًا، فَقَالَ: وَيْحَكِ لَا تُعْجِلِيهِ عَنِ الْفِطَامِ.

فَلَمَّا صَلَّى الصُّبْحَ وَهُوَ لَا يَسْتَبِينُ لِلنَّاسِ قِرَاءَتُهُ مِنَ الْبُكَاءِ.

قَالَ: بُؤْسًا لِعُمَرَ.

كَمْ قَتَلَ مِنْ أَوْلَادِ الْمُسْلِمِينَ.

ثُمَّ أَمَرَ مُنَادِيهِ فَنَادَى، لَا تُعْجِلُوا صِبْيَانَكُمْ عَنِ الْفِطَامِ فَإِنَّا نَفْرِضُ لِكُلِّ مَوْلُودٍ فِي الْإِسْلَامِ.

وَكَتَبَ بِذَلِكَ إِلَى الْآفَاقِ .

وَقَالَ أَسْلَمُ: خَرَجْتُ لَيْلَةً مَعَ عُمَرَ إِلَى ظَاهِرِ الْمَدِينَةِ فَلَاحَ لَنَا بَيْتُ شَعْرٍ فَقَصَدْنَاهُ فَإِذَا فِيهِ امْرَأَةٌ تَمْخَضُ وَتَبْكِي، فَسَأَلَهَا عُمَرُ عَنْ حَالِهَا فقالت: أنا امرأة عربية وليس عندي شيء.

فَبَكَى عُمَرُ وَعَادَ يُهَرْوِلُ إِلَى بَيْتِهِ فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ أُمِّ كُلْثُومٍ بِنْتِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ: هَلْ لَكِ فِي أجرٍ سَاقَهُ اللَّهُ إِلَيْكِ؟ وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ، فَقَالَتْ: نَعَمْ، فَحَمَلَ عَلَى ظَهْرِهِ دَقِيقًا وَشَحْمًا، وَحَمَلَتْ أُمُّ كُلْثُومٍ مَا

يَصْلُحُ لِلْوِلَادَةِ وَجَاءَا، فَدَخَلَتْ أُمُّ كُلْثُومٍ عَلَى الْمَرْأَةِ، وَجَلَسَ عُمَرُ مَعَ زَوْجِهَا - وَهُوَ لَا يَعْرِفُهُ - يَتَحَدَّثُ، فَوَضَعَتِ الْمَرْأَةُ غُلَامًا فَقَالَتْ أُمُّ كُلْثُومٍ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بَشِّرْ صَاحِبَكَ بِغُلَامٍ.

فَلَمَّا سَمِعَ الرَّجُلُ قَوْلَهَا اسْتَعْظَمَ ذَلِكَ وَأَخَذَ يَعْتَذِرُ إِلَى عُمَرَ.

فَقَالَ عُمَرُ: لَا بَأْسَ عَلَيْكِ، ثُمَّ أَوْصَلَهُمْ بِنَفَقَةٍ وَمَا يُصْلِحُهُمْ وَانْصَرَفَ.

أيها الإخوة:

الأصل في علاقة المسلم مع من حوله من المخلوقات الرحمة والرفق والشفقة؛ فإذا كان هذا المخلوق إنساناً زادت رحمة المسلم به وإشفاقه عليه، فإذا كان هذا الإنسان أخاه المسلم بلغت الرحمة منتهاها وصارت تراحماً بينهم.

وإنَّ من لايرحم لايرحم، ومن رحم من في الأرض رحمه من في السماء، والراحمون يرحمهم الرحمن، ولاتُنزع الرحمة إلا من شقي.

إنكم تسمعون اليوم عن صاحب دار يؤجرها لعائلة متضررة بعشرة آلاف؛ والدار تساوي ثلاثين لكن يرحمهم ويرأف بهم.

إنكم تسمعون اليوم عن من يركن سيارته في مكان واسع ويترك فسحة لجاره إذا جاء لعلمه أنه سيشق عليه أن يجد مكاناً مناسباً لركن سيارته، يرحمه ويفكر فيه.

إنكم تسمعون اليوم عمن أقرض قريبه مبلغاً من المال يعينه به على زواجه ثم استرده منه نفسه مع تسارع تغير قيمة العملة، ولكنه يرحمه ويحنو عليه.

إنكم تسمعون اليوم عن جمعيات خيرية متخصصة بالمجال الصحي تنفق خلال عام عشرات الملايين على معالجة مرضى لايجدون المال الكافي لعلاج أنفسهم، يرحم ذوي اليسار من لا يسار عنده. وقل مثل ذلك في جمعيات الإغاثة والأيتام والتعليم والتدريب المهني.

إنكم تسمعون اليوم عن مدرسات يعرضن خدماتهن في تدريس الأطفال بمقابل زهيد أو من دون مقابل يرحمْنَ من لايجد مالاً أو مكاناً للدراسة.

إنكم ترون اليوم سائقاً يوقف سيارته في منتصف الطريق ليسمح لامرأة عجوز تعينها ابنتها لعبور الطريق يرحمهما ويشفق عليهما.

ولئن كنا نسمع اليوم عمن لايرحم الناس، فإن شأن الخلق أنهم لايستوون؛ منهم الصالح ومنهم الطالح، منهم الرحيم ومنهم القاسي، منهم صاحب البر ومنهم صاحب الشر، وقد صدر القانون الرباني بأن ماينفع الناس يمكث في الأرض، وبأن الزَّبد يذهب جُفاء.

وإني ذاكر في آخر هذه الخطبة **ثلاثةَ أمور بها تزيد في نفسك خلق الرحمة:**

أولها– الإكثار من ذكر الله: لأن من أكثر من ذكر الله رقَّ قلبه، وما الرحمة والتراحم إلا رِقَّة تعتري القلب تدعو صاحبها إلى مشاركة الآخرين مسراتهم وآلامهم.

وعمر الذي تعرفون وسمعتم في الخطبة أطرافاً من رقة قلبه كان جباراً في الجاهلية يلطم أخته فيدمي وجهها، لكنه الإسلام والقرآن والإكثار من ذكر الله وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم جعلوا من عمرَ عمر الذي تعرفون.

ثانيها– التدرب على المظاهر السلوكية للرحمة وترك أضدادها.

فبِرُّ الوالدين مظهرٌ سلوكي من مظاهر الرحمة، والنفقة على الزوجة والأولاد مظهر من مظاهر الرحمة، وإكرام اليتيم مظهر من مظاهر الرحمة، ومثل ذلك إكرام الضيف وزيارة المريض والإحسان إلى الجوار والعفو عن الناس وبذل المعروف للآخرين.

فمهما مارست المظاهر السلوكية للرحمة أثَّرت في قلبك إلى أن تتمكن الرقة من قلبك فتملأه شفقة ورحمة ورأفة.

ثالثها– ترك الاستغراق في الشهوات والملذات: إذ الاستغراق فيها يجعل صاحبها من أهل الترف، وفي أهل الترف قسوة في القلب وكِبْر في النفس وظلم للعباد.

روى البيهقي بإسناده عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْكُمْ إِلَّا رَحِيمٌ**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كُلُّنَا رَحِيمٌ قَالَ: «**لَيْسَ رَحْمَةُ أَحَدِكُمْ نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ حَتَّى يَرْحَمَ النَّاسَ**».

والحمد لله رب العالمين